

الخيال المتأرجح

القديمي

الخيال المتأرجح

لحظات وما أدراك ما تلك اللحظات؟ قبل رؤية محبوب القلب ومهوي الروح ومنزل قمر الأشواق، أخذ الخيال تعصف رياحه بقلبي من أول ساعات الليل الذي غربت فيه شمس النهار، ورأيت طلوع شمس الفؤاد، وبينما تطلع هذه الشمس، وتطلع وتطلع وتطلع، نعم، تطلع ويطلع معها نجم الخيال ليذر الأنس في قلبي هشيما وقاعا صنفصفا، كأن لم ير أريحية قبل منذ خلق.

وجعلت أطالع هذه الشمس وأطالع، لا أمل من مطالعتها، ومشاهدة حسن إشعاع جمالها؛ لاجتماع عين قلبي المثقل كاهله بحمولات الشوق الكبيرة. ولكنني أتجاهل الألم؛ لما أطعم من لذاذات النظر المغتصب من بين الحراس والوشاة وما ألد النظر المغتصب!!!

وأراني وأنا أصارع جيوش الأنظار من حولي وإعلام وقنوات الخوف تزيد في الترعيب والترهيب والتخويف والتخذيل؛ لأنها تغار من الشمس التي تحتجب من وراء جدران هي أحب الجدران إلي؛ لأنها تضم روضة الفؤاد، حقا، إن تقبيلها يجلب حسنات مضاعفة من إطفاء لهيب الشوق كما يفعل شهر رمضان مع ذنوب العصاة.

حسنا حسنا يا هذا...

حاولت في الليل أمشي في صحاري خيال بعيدة مع أنني بين جدران تحيط
بي ومن ورائها بيت القصيد. صحيح المسافة قليلة بين الجدران، ولكنني
أقصد مسافات الخيال اللامتناهي، التي هي مقيمة بكل ما تحمله داخل
فؤادي.

بل أحيانا أكون واقفا وأنا أمشي، كيف هذا؟! ... نعم، تمشي أقدام قلبي
لا أقدام قلبي...

ومضى ذلك الليل الطويل...

نعم، إنه الطويل حينما يكر على الشوق بجيوشه، والقصير حين أهيم في
خيالي فانتقل إلى محبوبتي... وهكذا أعيش بين شوق كرار وخيال فرار...

مكرم مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
ومضيت وأمضي وامض

هكذا مضيت في أشواقني

وأمضي في خيالي

وامض يا قلب إلى محبوبك البعيد، البعيد جدا جدا، وبينك وبينه جدار
لطيف، لو أن نظرات العين كانت رصاصا لحطمته حتى صار ترابا مثلما
يتمنى كافر الألم بعد قيامة الذكريات.

وهنا أتوقف لحظات لأزود مركبي بزفير وشهيق؛ لأن الطاقة الجسدية
بدأت تتلاشى، هكذا تتلاشى تتلاشى، وتنظر لجسم الروح يمضي وحده في
غفوات، يرى نفسه يدخل من باب ويقفل الآخر على سفينة الرعب وزورق
الخوف.

وهكذا ظل الليل الجميل الذي ينتظره صبح وأليس الصبح بقريب؟!
وكثيرا ما تمر بالقلب ليال يكون بين حناياها غيرة عظمت فائقة من صبح
تكحل بإثمد الأنس، وتزين بذهب الوصل، وانتسج ثوبه بحريير اللقاء،
وطرزت أستاره بخيوط الفضة.

ولما تناقل الليل وتناول، وناء بكلكله، وجعل المحب يناديه بما قال
امرؤ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ناداه رب الأنس من فوق سماوات الشوق:

ألا أيها القلب العليل تصبرا فإن وراء الستر ما يبعد الأسي

مهلا أيها القلب المتعثري في هذه الصحراء المترامية الأطراف، مهلا مهلا،

أرجوك أيها القلب:

هل لك أن تقلب ناظريك في سماء الهوى؛ لتستهدي بنجوم جمالها في

مسيرك بين أشواك الطريق، ولتكون لك مصابيح تنير دربك؛ درب العشق

الذي لا زال أصم وأبكم لم ينطق لسانه ولم تبصر عيناه، ولترجم بشهبها

شياطين الوشاة والحساد؟؟؟

وهكذا هي السماء...

نعم هكذا السماء التي هي قبلة المحبين، يرفعون إليها أكف الشوق

المبسوطة، ويشخصون إليها بأبصار الأسف المحرق الذي لم يبق من الجسد

والقلب إلا من فيه، ويجأرون بأصوات محملة بأعباء الألم تكاد حروفها

تتفجر من شدة الامتلاء، ويذرفون دموع الأااااااه الحارة جدا على خد قد

اسود من كثرة الصب.



وبعدما تعب داعي الهوى من رفع كفه وشخوص بصره وشحب صوته
وتقطعت أوتاره، رجع ليأخذ زفيرا وشهيقا يعيد لنفسه به الطاقة التي قد
تلاشت مما فعلت.

حسنا حسنا، خذ نفسا تستعيد به نفسك، وهل النفس إلا بأنفاسها!!
تراجع القهقري قليلا؛ لترك موضعه لداع من دعاة الهوى؛ فإن المكان
مزدحم جدا جدا، وكم هم مقتولو الهوى وضحايا الشوق.
وما الموجودون الذين ظهروا في شاشة القبلة الواسعة الفيحاء إلا من
باحوا واعترفوا بذنب الكتمان.

وأما أرباب الصمت وأولوا الكتمان، فهم لا زالوا يسبحون بحمد الأسي،
ويقدسون ذات اللهيب اللافح، مرميين على أرصفة الهيام يقتاتون ذكرى أيام
سلفت وأحوال مضت.

نعم نعم إنهم مقهورون نعم...

وهكذا، بدأت خيالاته تستعيد ذكريات ليالي الصمت وظلمات الكتمان.
وكيف كان يمر الليل الطويل والآهات تخترق أضلاعه وتشوي قلبه
المتألم والآااااح ينفذ من كبده الدامي..

كيف كان يتحمل هذا كله ونفسه عدوة نفسه

وفؤاده عدو فؤاده؟؟

وكم شهداء سقطوا في معارك الكتم وسرايا الصمت؟

وكم مجروح فيها لم تنقذه عقاقير الطب ولا أدوية الصيدليات؟

ولم يرق له قريب أو صديق حميم وهو يتلظى بناره غير أناته التي تبكي عليه وتبكيه.

حاول أن يصرف الخاطر عن ذكريات تهيج الحزن وتشعل الأسف بين جوانح لطالما سفك عليها دم كثير من الليالي المواضي والساعات الخوالي، وحاول شيئاً فشيئاً يستل من بين الجمع الذين ينصتون لخطيب الذكريات المفوه.

ليذهب بعيدا بعيدا، نعم بعيدا، حتى لا تصل إلى مسمعه تلك الحروف الأليمة.

ثم دخل في خيمته يدعو ربه أن يخفف عنهم سورة العذاب وغيظ الكتم ولهيب الصمت الصامت؛ فلعل دعوة تخترق الحجب لتكون سببا لسعادة قلوب ظلت مأسورة ردها من الزمن وبرهة من الدهر وحقبة من الوقت، قد

وهن فيها العظم وضعف فيها الجسم وبانت فيها الحقائق.

ولم يكفه ذلك، بل زاد أن تلمس ممن توسم فيهم مخايل الفلاح ودواعي النجاح أن يصفوا الأكف بجانب الأكف كالبنيان المرصوص، فلعل أنه دعوة تخرق أسوار القدر؛ لتصل حيث تنفك عقد الصامتين وآهات الكاتمين.

وهكذا يتداني وقت السحر لتصعد فيه الأنات والآهات والأصوات المجروحة، تهمس في أذن السماء التي أخذت تفارقها نجومها؛ فهي أيضا مكلومة؛ فأصبحت شكوى مكلوم لمكلوم، ومجروح لمجروح، وما ألد المقام عندما يحكي المتألمون فيه آلاما بألسنة أفئدة فنتزح غمى الصدور وبرحاء الغم والهم!!! وما ألد القلوب العاشقة عندما تقوم في محراب الهوى تقرأ سور الذكريات، وتتلو آيات الغرام مرتلة!!!

وهكذا بعد لي وطي، وأخذ ورد، وفرح وحزن، وشوق وخيال، وآهات واستغاثات؛ جلس المحبون في مجالس ذكراهم، واشتغل كل منهم بورد آهاته؛ لينشرح صدره، ويهدأ صريره وغمه، وترحل عنه مظاهرات الألم، وتنطفأ ثورات الغرام القديم.

وظلوا عاكفين على هذا حتى طلع الفجر المنتظر منذ زمن طويل
بحسابات أوقات المحيين، نعم، طويل طويل جدا جدا جدا.

وأخذ بعض حداتهم ومنشديهم ينشد ويلحن بصوت مطرب قول بعضهم:

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

فمثل ذلك ود العاشقين هوى بالمزح يبدو وبالإدمان يلهب

وجاء ذلك الفجر الجميل، نعم، الجميل الرائع الذي يحمل بعده بشارات
المحبوب التي لطالما ولطالما تمنهاها المحب وتمنى لحظاتها العسلية التي
استثيت من جنة الفردوس، وهكذا كانت لتكون تذكرة الأخرى في الأولى
وذكرى الأولى في الأخرى، وهكذا الأزمان تتقارض كما يتقارض الناس
الأموال فيما بينهم، ولكن الجود بالمحبوب لا يوجد في عرف المحيين.

وجاء بعدها مؤذن فجر الهوى ليوقظ السكارى بخمرة الشوق الذين لم
يعودوا مدركين الأوقات نفسها فصار وقتهم لا وقت له...

ونادى فيهم أن أفيقوا من سكرة الشوق لتنالوا مشوقاتكم...

التقديمى